فلسفةُ التَّداوُل

• الأزهر الصحراوي*

كان سيدي أحمد يدفن وجهه بين صفحتيْن من صفحات جريدة **القدس** بتاريخ ١٠ أفريل ٢٠٠٠. وفجأةً رمى بها على الأرض بحركة عصبيّة. همّ النّادلُ بإعادتها إليه، غير أنّه تراجع عن ذلك حين غمزه صاحبُ المقهى أن «أتركْه وشأنه.» كانت يدُه اليمنى التي قُطعتْ سبّابتُها في حرب ١٩٤٨ تبدو ككمّاشة وهي تُزيل القذى عن عينه اليسرى وتداعب شاربيْه المفتولَيْن الأشيبيْن فَتَلُوحُ عينُه اليمنى العوراء التي فقدها في تلك الحرب أشبهَ بحفرة مُعتّمة في جدار. غير أنّ رميه للجريدة لا يمكن أن يتعدّى احتمالين اثنيْن: فإمّا أنّه غضب من زيارة وفد الكنيست إلى موريتانيا، وهي زيارة تُوّجتْ بتشكيل جمعيّة برلمانيّة موريتانيّة ـ إسرائيليّة؛ وإمّا أنّه انزعج من أصوات الطبول التي كانت تَدُقّ في المدينة منذ ثلاثة أيّام معلنةً قدومَه.

فقد كان أنصارُه يجوبون الشّوارع هاشّين باشّين مُبشّرين بمجيئه، وكان هاتفُهم يَهْتف في الجموع قائلاً: «سيشرّف مدينتَنا... سيجيء وحيدُ زمانه وفريدُ عصره... سيجيء الديموقراطيّ الأول والأخير...» وكانت اللاّفتات القماشيّة مُثبتةً في الأشجار وأعمدة الكهرباء، وعليها اسمُه وبعضُ كلمات التّرحاب. وكانت جدرانُ المدينة مزدانةً بالملصقات الحائطيّة التي عليها صورتُه الأنيقة. وكانت النّسوة الجميلات يحفظن عن ظهر قلب بعضَ كلمات التّرحاب القصيرة التي تَقْطر ودّاً ورقّةً وأنوثةً. أمّا النسوة الأقلّ جمالاً فكنّ منشغلات بإعداد البخور والتدرّب على الزّغاريد الأنيقة الصّافية. وأمّا الأطفال فكانوا منتظمين فِرَقًا فِرَقًا ومنهمكين في التدرب على ذلك النشيد القديم الحديث: «أَقْبَلَ البدرُ علينا،» غير أنّهم حرّفوه بعضَ التّحريف فاستبدلوا: «المبعوث فينا» بـ «الآتي إلينا.»

وعمومًا كانت تلك الأيّامُ الثلاثةُ كفيلةً بإعداد السكّان إعدادًا نفسيّاً وذهنيّاً وبدنيّاً لتقبّل الحدث الجَلل. فكان الناسُ ينضمّون طائعين إلى المواكب التي تجوب الشّوارع يوميّاً، فيهتفون باسمه، ويرقصون، وينظّمون الصفوفَ، ويلوّحون بقبضاتهم في الفضاء، ويُحرّضون الواقفين على الأرصفة على الانتماء إلى الجموع المتدافعة، ويَمْسحون العرقَ المتصبّب من جباههم ووجوههم. وما إنْ جاء اليوم المنشود حتّى قُدّت المنصّةُ الكبيرة، وزُيّنتْ بالورود والقرنفل والنّسرين، ووُضعتْ مضخّماتُ الصّوت بعناية دقيقة ليصل صوتُه بكلّ صفاء إلى كلّ الناس الذين توافدوا إلى ملعب كرة القدم، ونُصبتْ نحوه آلاتُ التّصوير الثّابتة والمتحرّكة، وحضر ممثّلون عن الصّحافة المكتوبة والمسموعة لتوثيق الحدث المهيب. كانت ساحة الملعب ومدارجُه غاصّةً بالحضور، حتى إنّ سيدي أحمد الذي لم يعثر على مكان شاغر جعل يُردّد مدهوشًا: «كل النّاس هنا! ألم يبق أحد في بيته؟» فاضطرّ إلى الوقوف مع الواقفين. ولعلّ الصدفة وحدها جعلتْه يقف قريبًا من صحفيّ وطالب من طلاّب الفلسفة. كان الناس ساكتين ينتظرون ويَعدّون الدّقائق عدّاً، وعيونُهم مركّزة على المنصّة الجميلة.

فجأةً صعد المنصّةَ أربعةُ رجال، أحدُهم يحمل بين يديْه حقيبةً سوداءَ كبيرة، والثّاني يحمل على كتفه حقيبةً بنيّةً كبيرة، والثّالث يتأبّط حافظةَ أوراقٍ صغيرة، أمّا الرابع فقد أخذ المِصْدَحَ وجعل يقول والنّاس خُشّع: «أيُّها الملأ الكريم. أيُّها الجمع الغفير. تسمعون اليوم محاضرة الشّيخ العلاّمة والحَبْر الفهّامة الأستاذ الدكتور... أستاذ الكرسيّ... الدكتور الزّائر... أيُّها الناس اسمعوا وعوا. إنّه رضع الدّيموقراطيّة رضاعةً، وقد شرّق في أرض اللّه وغرّب ليشربها من نبعها الصّافي ويقطفها من منابتها الأولى...»

بدا الرّجل المُبجّل من على المنصّة أسمرَ البشرة طويلاً أصلع الرّأس، يرتدي نظّارات سوداء وعليه بذْلة سوداء. كان يبتسم ويُحرّك رأسه راضيًا عن الإطراء الذي كان المتكلّم يخلعه عليه. ثمّ أومأ المتكلّم برأسه إلى حامل الحقيبة البنيّة أن افتح الحقيبةَ، ففعل، ووضعها فوق المنصّة، وجعل الخطيبُ يقول: «أيُّها الإخوة الأعزاء. هذا وسام الحوار الديموقراطيّ ـ يَعرضه أمام الملإ ـ وقد أَحْرزه من مملكة النرويج. وهذا وسام الاستحقاق الديموقراطيّ أسنده إليه حاكمُ بوسطن. وهذا نيشانُ الكفاح الديموقراطيّ

* ـ كاتب من تونس.

استحقّه من القائد الأعلى لعاصفة الصّحراء...» وكان يُوسِّمه بالأوسمة والنّياشين حتّى كاد الرّجل ينهار بفعل الثّقل. ثمّ أومأ إلى حامل الحقيبة السوداء أن أفتح الحقيبةَ واجعلْها على المنصّة، ففعل، فجعل يُخرج الكتبَ ويرفعها ليُشاهدها النّاس وهو يقول: «هذا كتاب **الديموقراطيّة في العالم الثالث**. وهذا **ديموقراطيّة الثورة أم ثورة الدّيموقراطيّة؟** وهذا **موقف الحجّاج بن يوسف من الدّيموقراطيّة**. وهذا **مائة نصيحة لتعلّم الديموقراطيّة**.» علت موجةٌ تصفيق وهتاف. فرفع الخطيب صوته على أثرها قائلاً: «أيُّها النّاس، أيُّها النّاس. لم تبق إلاّ محاضرة دكتور الدكاترة وشيخ الشيوخ، حاصدِ الأوسمة، ومُصنِّفِ هذه التّصانيف، ومُؤلّفِ هذه التآليف وقد حَدَّد مداخلتَه بنصف ساعة، وخَصَّص حضرتُه ثلاثَ ساعاتٍ للمناقشة والإجابة عن الأسئلة المحيِّرة والقضايا الغامضة. أمّا عنوانُ المحاضرة فهو فلسفة التّداول الدّيموقراطيّ. ولم يبقَ لي إلاّ أن أفسح المجالَ للأستاذ الدكتور.. »

تناول الديموقراطيّ المصْدحَ فداعبه بأنامله فتجاوبتْ أصداؤه في الأرجاء، وهمس بصوت ناعم مُخَنَّث قد عَلته لكنةٌ افرنجيّة: «مساء الخير...» فردَّد الجمع الغفير: «مساء الخير. » ساد بعضُ الصّمت ثُمّ انبرى يقول: «نحن أربعةُ مسافرين، ولنا جحش واحد، والمسافة التي سنقطعها تقدَّر بأربعين ألف متر، فيجب أن يركب كلُّ واحد مسافةَ عشرة آلاف متر. هذه هي فلسفة التّداول الديموقراطيّ.» انفلتت بعضُ الضّحكات العفويّة. واصل يقول: «إنّ الخليفة عمر بن الخطّاب عادل، لكنّه لا يؤمنُ بفلسفة التّداول على الحكم، فسعى النّاس إلى قتله من أجل هذا المبدإ...» تعالت بعضُ القهقهات والتعليقات السّاخرة. احمرّت عيناه وغلُظَ صوته واحتدّ، وراحت قبضتُه تدقّ المنصّة دقّاً وهو يقول: «إنّ الدّيموقراطيّة هي العصا الغليظة. فلا ديموقراطيّة لأعداء الديموقراطيّة. إنّي أرى رؤوسًا أينعتْ. اقتلوا أعداءكم واغزوهم قبل أن يغزوكم. إنّ هذا لا يُفهم إلاّ بفهم الماديّة التاريخيّة وتحديد مسألة الهويّة وصراع الإمبرياليّات وإنّي ـ والقولُ لي ـ قد مَزَجتُ بين الديموقراطيّة البرجوازيّة وديكتاتوريّة البروليتاريا، فيجب أن نجعل من القمع أشدّ قمعًا بأن. »

تجاوز المحاضرُ الوقتَ بساعتين دون أن يتوقّف عن الكلام. وصعدتْ زوجةُ أحد أنصاره إلى المنصّة وجعلت تُجفّف وجهَه وصلعتَه بمنشفة. وأخذ النّاس يُغادرون المكان بأعداد كبيرة، ذاهلين منكسرين. كان المحاضر يَخْطب قائلاً: «واللّه، لولا الخوف والحياء لقبّلتُها.. إنّ الديموقراطيّة الأخلاقيّة هي أن تُقَبّلَها بين الرّصافة والجسر، وأن تَسْقني خمرًا وتقول لي هي الخمر، ولا تسقني كأسَ الحياة بذلّة...»

اشتعلت الأضواءُ الكاشفة في الملعب، وجعل النّاسُ يعودون إلى بيوتهم، ولم تبق إلاّ فئة قليلة لا تتجاوز العشرة وقد أحاطوا بسيدي أحمد والصُّحفي والطّالب وهم يصرخون مطالبين بالنّقاش وإبداء الرّأي. غير أنّه واصل يقول: «سأبادلكم أدبًا بأدب.. إنّ المصْدح معي، والنّاس معي، وصوتي سيبلغ كلّ أرجاء الأرض لن أناولكم الكلمة يا أعداء الديموقراطيّة...»

مضت أربعُ ساعات وهو يخطب في النّاس، ومضت على سيدي أحمد وجماعته ساعتان ونصف وهم يُطالبون بالنّقاش والحوار وإبداء الرّأي قائلين: «ناولْنا الكلمةَ يا عدوّ الديموقراطيّة...»

فجأة انقطع النّورُ الكهربائيّ، فغرق الجميع في ظُلمة حالكة، وساد صمت نظيف.

تونس